



في رحاب التوراة

دراسات وجارات روحانية مُعمّقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع
الحاخام جوناثان ساكس

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY



The Original text in English and translations to other languages can be found here:
[Covenant & Conversation](#) | [Devarim](#) | [To 120: Growing Old, Staying Young](#) | [The Rabbi Sacks Legacy](#)

"دفاريم" هو النصّ الأسبوعي الأول من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية)، وهذا النصّ الأسبوعي يحمل نفس العنوان الذي يحمله هذا السفر. يبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الأول وينتهي بالآية الثانية والعشرين من المقطع الثالث.

حتى المائة والعشرين: أن تتقدّم في العمر وتظلّ شاباً

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

أقيم احتفالاً تقليدياً في قصر بكنغهام بتاريخ السابع والعشرين من شهر آذار/مارس عام 2012م بمناسبة اليوبيل الماسي على تنصيب الملكة. وخلال الحفل ألقى عددٌ من الشخصيات وممثلي مؤسسات المملكة المتحدة خطابات لتجديد ولائهم للملكة وشكرها على خدمتها للبلاد، ومن بين هؤلاء كان مجلسٌ ممثلي يهود بريطانيا. ومن ضمن الخطاب الذي ألقاه رئيس المجلس آنذاك فيفيان وايمان كانت العبارة اليهودية التقليدية التي تقال في مناسبة كهذه: "حتى تبلغ من العمر مائة وعشرين عاماً".*

بدأت الملكة مُستمتعة بما سمعته لكنها نظّرت إلى الأمير فيليب نظرة تملؤها الحيرة والتساؤل، فكلاهما لم يسمع هذه العبارة من قبل. لاحقاً توجه الأمير إلينا بالسؤال عن فحوى هذه العبارة فوضّحناها له، فالرقم مائة وعشرون هو الحدّ الأقصى للعمر الطبيعي للإنسان بحسب ما يذكر سفر التكوين في الآية الثالثة من المقطع السادس. وهذا الرقم مرتبّط بشكل خاصٍ بعمر موشيه/موسى بحسب ما تذكره لنا الآية السابعة من المقطع الرابع والثلاثين من سفر التثنية: "وكان موشيه ابن مائة وعشرين سنة حين مات، لم تدمس عينه ولم تزل رطبته". وقد مثّل موشيه نموذجاً للتقدّم في العمر مع الاحتفاظ بالصحة والحيوية، والحال نفسه ينطبق على أفراهام/إبراهيم الذي تمتّع بشخصية وظروفٍ مُختلفة عن ظروف وشخصية موشيه. وقد أصبح التقدّم في عُمر البشر تحدياً بارزاً للكثير منا، إذ كيف نتقدّم في العمر ونظلّ بحيوية الشباب في الوقت نفسه؟

* هنالك عبارة شائعة في العالم العربي تُقال في أعياد الميلاد وهي "عقبال مائة وعشرين سنة" أو "عقبال مئة سنة".

ويكاد يكونُ البحثُ المعروف باسم جرانت (Grant Study) أكثر دراسة مُطوّلة تبحُّتُ بعمق في إجابة هذا السؤال، والتي بدأت منذ عام 1938م بتتبع حياة 268 طالباً من طلاب جامعة هارفرد لمدة ثمانية عقود تقريباً، وذلك في محاولة لفهم الخصائص التي من شأنها أن تُساهم في ازدهار الإنسان، بدءاً من طبيعته الشخصية ومروراً بالذكاء والصحة وانتهاءً بالعادات والعلاقات الاجتماعية. وعلى مدار ثلاثة عقود كان مشروع البحث تحت إشراف عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي جورج فايلانت صاحب كتابي "Aging Well" و"Triumphs of Experience" والذي تطرّق لهذا الموضوع بأسلوبٍ رائع جداً.¹

ومن بين الأبعاد الكثيرة المتعلقة بالتقدم في العمر والبقاء بصحة وحيوية، نجد أن جورج فايلانت يتطرّق إلى بُعدين اثنين يتعلّقان بقصة موشيه. أما البعدُ الأولُ فيُطلقُ عليه مُصطلح "generativity"²، ويقصدُ به الاكتراثُ بالأجيال القادمة، ويقتبسُ تعريفاً لهذا المصطلح من البروفيسور الأمريكي جون كوتر يقول فيه: "إنه يعني استثمار الفرد في مظاهر حياتية وعملية بحيث تظلّ باقية حتى بعد وفاة هذا الفرد".³ وبعد أن نبني لأنفسنا عملاً جيداً وسُمعة طيبة ونكوّن شبكة من العلاقات (بغض النظر إن كنا في ريعان الشباب أو في سنّ الشيخوخة حينها) فإن أماننا خيارين لا ثالث لهما: إما أن نقف مكاننا في حالة من الجمود والرُكود، أو أن نمضي قدماً عبر إعادة ما منحنا إياه الآخرون في مُحيطنا ومُجتمعنا للجيل القادم. لهذا فإن اكتراثنا بالأجيال القادمة عادة ما يكون على شكل القيام بمشاريع جديدة غالباً ما تكون من باب التطوّع، أو على شكل تعلّم مهاراتٍ جديدة أو غيرها، لكن أياً كان شكلها فإنها تُعبّر عن الانفتاح صوب الأجيال القادمة والاكتراث بأمرها.

أما البعدُ الثاني المُتعلّق بموشيه فيُطلقُ عليه مُصطلح "keeper of the meaning"، ويقصدُ به الحكمة التي يكتسبها المرء مع الزمن، وهو أمر تُقدّره المُجتمعات التقليدية أكثر من مُجتمعات الحداثة وما بعد الحداثة. فـ"الشيخوخة" المذكورون في كتاب التناخ* مثلاً كانوا رجالاً ذوي قدر وقيمة نظراً لتجربتهم وخبرتهم الطويلة في الحياة، وهذا ما تُخبرنا به الآية السابعة من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التثنية: "بل اذكر أيامَ الدهرِ وتفهم سنين جيل وجيل، اسأل أباك، يُخبرك، أشياخك ويقولون لك" والآية الثانية عشرة من المقطع الثاني عشر من سفر أيوب: "الشَّيبُ حِكْمَةٌ، وطولُ الأيامِ فهمٌ".

بالتالي فإنَّ انطباق هذا المُصطلح على شخصٍ معيّن يعني أنه شخصٌ يُمرّرُ قيم وأخلاقيات الماضي إلى المُستقبل. فالتقدّم في العُمُر يجلبُ معه الثروي والتريث والانعزال، الأمر الذي يجعلنا نُنأى بأنفسنا عن كثير من الأمور وألاً نأبه بها، مثل الحالة المزاجية العامة أو آخر الصّراعات المارقة أو تحبّط البشر وجنونهم. إننا بحاجة لتلك الحكمة خاصة في زمن كزمننا الذي يمضي فيه الوقتُ بلمح البصر، هذا الزمنُ الذي يُحقق فيه البشر نجاحاتهم الكبرى رغم أنهم لا زالوا شباباً يافعين.

ولو ألقينا نظرةً على مهن وأعمال بعض الشخصيات المعروفة في وقتنا الحالي مثل بيل غيتس ولاري بايج وسيرجي برين ومارك زوكربيرغ لرأينا أنهم خلال مرحلة معينة من مراحل حياتهم توجهوا إلى مُرشدين ومُستشارين أكبر منهم سنّاً حتى يوجهوهم جيّداً للتجديف بين الأمواج العاتية التي تُضربُ سفينة نجاحاتهم. بالتالي فإن عبارة "عسيه ليخا راف" (المذكورة في المِشناه في مقطع أفوت 1:6، 16) والتي تعني "جد لتفسيك معلماً" كانت ولا زالت نصيحة في مُنتهى الأهمية.³

إنّ المُذهلَ في سفر التثنية – والذي وُضِعَ بأكمله في الشهر الأخير من حياة موشيه – هو كيفية إظهاره للقائد الذي ظلّ يتحلّى بالدافعية والحماسة رغم كبره في السن، وبأنه قائدٌ يهتمُّ بالأجيال القادمة من قومه ويُصبو لتمرير الحكمة التي اكتسبها في الماضي إلى المُستقبل. فلربّما كان من الأسهل بالنسبة لموشيه أن يتنحى جانباً ويكتفي بالجلوس في عالمه الخاص على أطلال ذكريات الماضي المليء بالإنجازات في الحياة الاستثنائية التي عاشها، خاصة وأنه الشّخص الذي اختاره الله عزّ وجلّ ليقود قوماً من الاستعباد إلى الحُرية واضعاً إياهم على عتبات الأرض المقدسة.

* ملاحظة توضيحية من المترجم: التناخ هي كلمة تختصرُ الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "توراة، نفييم، كتوفيم" (أي التوراة والأنبياء والكتابات)، ويُقصد بكلمة تناخ الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سفر يوشع، وسفر القضاة وسفر صموئيل الأول والثاني وسفر الملوك الأول والثاني وسفر إشعياء وسفر إرميا وسفر حزقيال، وسفر اثني عشر الأنبياء الاثني عشر الأواخر. ويُضاف لها أسفارُ الكتابات، والتي تضمُّ الهاغويغرافيا، أي كُتُب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخامات والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضمُّ أحد عشر كتاباً، وهي سفر المزامير، وسفر الأمثال، وسفر أيوب، وسفر روث (راعوث)، وسفر نشيد الإنشاد، وسفر الجامعة، وسفر مرثي إرميا، وسفر أستير، وسفر دانيال، وسفر عزرا ونحميا، والجزء الأخير من التناخ يضم أسفار تدوين التاريخ. بالتالي يضمُّ التناخ بين ثناياه أربعة وعشرين سفرًا (كتاباً)

ولربما كان بإمكانه أن يستسلم ويعرق في مُستنقع الفشل كونه لم يتمكن من الدخول بنفسه إلى الأرض التي أمضى أربعين سنة في قيادة القوم الذين سيدخلونها. ولا بد لأحدنا أن التقى بأشخاص مُستغرقين بحقيقة فشلهم في نبيل التقدير الذي يستحقونه أو الذي أنجزوه، أو لفشلهم في تحقيق النجاح الذي كانوا يحملون بتحقيقه عندما كانوا شباباً.

لكن موشيه لم يفعل أيّاً من هذه الأمور، بل صَبَّ اهتمامه خلال أيامه الأخيرة على الجيل القادم وباشَرَ بأداء دور جديد، فهو لم يُعد بعد الآن موشيه المُحَرَّر ولا المُشَرِّع، بل أصبح كما جاء في السيرة اليهودية "موشيه رابينو" أي مُعلِّمنا موشيه، وهذا كان بشكلٍ أو بآخر أعظم إنجازٍ له. لهذا بدأ يُحدِّثُ الجيل الشاب من بني إسرائيل عن هويتهم ومصيرهم والمكان الذي جاؤوا منه، كما منحهم التشريعات والقوانين لكن بأسلوبٍ جديد هذه المرة، حيث لم يُعد التركيز على اللقاء الإلهي مثلما كان في سفر الخروج، ولا على القرابين مثلما كان في سفر اللاويين، بل انصبَّ التركيزُ هذه المرة على التشريعات والقوانين في سياقها الاجتماعي. فحدّثهم عن العدل والاهتمام بالفقراء والمساكين والعُمل بالإضافة إلى أهمية محبة الغريب. كما وضع الأسس التي تقوم عليها العقيدة اليهودية في هذا السِّفرِ بطريقة منهجية أكثر من أي سفرٍ آخر من أسفار التناخ.

كما أخبرهم عن محبة الله عزَّ وجلَّ لأبائهم وأجدادهم، وحثَّهم على مُقابلة هذه المحبة بالمِثل وبكامل قُدرتهم ومن أعماق قلوبهم وأرواحهم ووجدانهم (مثلما تذكر الآية الخامسة من المقطع السادس من سفر التثنية). ثم جَدَّدَ العهدَ مع بني إسرائيل عبر تذكيرهم بالنعمة التي سَيُنعمُ الله عليهم بها إذا حافظوا على إيمانهم به، وبالنعمة التي ستحلُّ عليهم إذا لم يُحافظوا على هذا الإيمان، وعلمهم الأنشودة العظيمة من النص الأسبوعي "هأزينو" (بمعنى اسمعوا) ومَنحَ بركته للقبائل وهو يحتضِرُّ على فراش الموت.

بالتالي أظهر موشيه لقومه المعنى الحقيقي للاكتراث بالجيل المُستقبلي، تاركاً خلفه إرثاً سيظلُّ حياً بعد وفاته. كما بين لهم معنى أن ينقل المرءُ حكمة الماضي إلى المُستقبل عبر استحضار ما أوتِيَ من حِكْمَةٍ في الماضي ليمنحها للجيل القادم كنتائج لتجربته الطويلة. وعبر تجربته الشخصية بيّن لهم كيف يُمكن للمرء أن يتقدّم في العُمُر ويظلُّ بحيوية الشباب.

وفي ختام سفر التثنية نجد الآيات التوراتية، تحديداً الآية السابعة من المقطع الرابع والثلاثين، تصف موشيه بأنه "لم تَدْمُسَ عينه ولم تزل رطبته" رغم بلوغه مائة وعشرين عاماً. وببساطة كنتُ أعتقدُ أن هاتين العبارتين هُما صفتان مُنفصلتان، لكن سرعان ما اكتشفتُ أن إحداهما تُفسِّرُ الأخرى. فقد كان موشيه في كامل حيويته لأنَّ نور عينه لم يَدْمُسَ، بمعنى أنه لم يتخلَّ أبداً عن القيم والمبادئ التي التزم بها في شبابه، فلم يفقد شغفه لتحقيق العدل ولا مسؤولياته تجاه الحرية.

إنه لمن السهل جداً على المرء أن يتخلَّى عن مبادئه وقيمه عندما يُدرك مدى صعوبة إحداث التغيير حتى لو كان في أصغر مكان في هذا العالم، لكنه عندما يتخلَّى عن مبادئه وقيمه فإنه يُصبح شخصاً مُتهكماً كئيباً ومخذولاً، وهذا بحد ذاته شكلٌ من أشكال الموت الروحاني. أما بالنسبة لأولئك الذين لا يتخلَّون عن مبادئهم وقيمتهم ولا يستسلمون أبداً، و"لا يَنقادون بسهولة إلى عتمة الليل"،⁴ والذين لا يزالون يرون عالماً من الإمكانيات في كل ما يُحيط بهم فيُشجعون الآخرين ويشدون من أزر الذين سيأتون من بعدهم، هؤلاء هم الذين يُحافظون على لياقتهم الروحانية فعلاً.

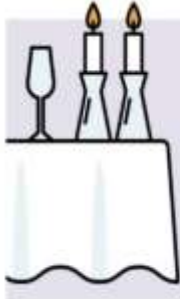
وهناك أناسٌ يقومون بأفضل أعمالهم في سنِّ الشَّباب، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد فليكس مندلسون قد ألفَ مقطوعته الموسيقية التي تحمل عنوان "أوكتيت" وهو في سنِّ السادسة عشرة، ومقطوعته الموسيقية الافتتاحية "حلمٌ في منتصف ليلة صيفية" بعد عام من ذلك، وهي أعظم مقطوعات موسيقية كُتبت على يد موسيقي شابٍ صغيرٍ بهذا العُمُر. كما أن جورج أورسن ويلز كان في أوج عظمته في عالم المسرح والإذاعة وهو يبلغ من العُمُر ستة وعشرين عاماً عقب تأليفه المسلسل الدرامي الأمريكي "المواطن كين" (Citizen Kane)، والذي يُعدُّ أكثرَ عملٍ فنيٍّ حققَ قفزةً نوعيةً في تاريخ السينما.

في الوقت نفسه، نجدُ الكثيرين ممن كان يتحسن أداءهم كلما تقدّموا في العُمُر، فعلى سبيل المثال نجد أن موزارت وبتهوفن كانا عابرةً منذ نعومة أظافرهما، لكنهما ألفا أعظم مقاطعهما الموسيقية خلال آخر سنوات حياتهما. وكلود مونيه رسم سلسلة لوحاته الفنية البراقة التي تحمل عنوان "زباب الماء" الموجودة في حديقته في بلدة جيفرني وهو في الثمانينيات

من عمره. وجوزيبي فيردي كان يبلغ من العمر خمسة وثمانين عاماً عندما آلف معزوفة الأوبرا الشهيرة فالستاف. وبنجامين فرانكلين كان يبلغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً حين ابتكر النظارات ثنائية البؤرة. والمهندس المعماري فرانك لويد رايت أنهى تصميمه لمتحف سولومون غاغينهام وهو بعمر الثانية والتسعين. والحال نفسه ينطبق على ميكيلانجيلو وتيتيان وهنري ماتيس وبيكاسو، حيث ظلوا بنفس القدر من الإبداع في عقدهم التاسع. أضيف إليهم جوديث كير التي هاجرت إلى بريطانيا في الوقت الذي صعد فيه هتلر إلى سدة الحكم سنة 1933م، فكتبت قصة الأطفال الكلاسيكية الشهيرة "النمر الذي جاء ليحتسي الشاي" (*The Tiger Who Came to Tea*) والتي نالت مؤخراً أول جائزة أدبية لها وهي بعمر الثالثة والتسعين. وهُنَا يوضِّح البروفيسور الأمريكي ديفيد غالينسون عبر صفحات كتابه "شيوخ كبار وعابرة صغار" (*Old Masters and Young Geniuses*) بأن أصحاب الإبداعات النظرية ينجحون بإنجاز أفضل أعمالهم وهم صغار في السن، بينما أصحاب الإبداعات التجريبية العملية الذين يتعلمون من خلال المحاولة والخطأ فهم ينجحون بإنجاز أفضل أعمالهم كما تقدّموا في السن.⁵

وهنالك أمرٌ مؤثّرٌ جداً في رؤية موشيه وهو على مشارف المائة والعشرين عاماً لكنه يتطلّع إلى المستقبل والماضي على حدٍ سواء حتى يُشارك الجيل الشاب ما اكتسبه من حكمة، وفي تعليمه لنا بأن الجسم قد يهرم لكن الروح بإمكانها أن تظل يافعة حتى يبلغ المرء عُمر المائة والعشرين "عَد مِئَاة فِعْسِرِيم" إذا حافظنا على مبادئنا وقيمنا، وقدّمنا للمجتمع ما قدّمه لنا، وشاركنا حكمتنا مع من سيأتون بعدنا، بحيث نكون مصدر إلهام لهم حتى يكملوا ما لم ننجح نحن بإكماله.

1. George Vaillant, *Aging Well* (Boston: Little, Brown, 2003); *Triumphs of Experience* (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 2012).
2. هذا المصطلح مُستوحى من أعمال إريك إريكسون، والذي اعتبره ونقيضه (أي الركود والجمود) جزءاً من مراحل التطور الثمانية في الحياة.
3. John Kotre, *Outliving the Self: Generativity and the Interpretation of Lives* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1984), 10.
4. البيت الأول من قصيدة ديLAN توماس التي تحمل هذا العنوان.
5. David Galenson, *Old Masters and Young Geniuses* (Princeton: Princeton University Press, 2007).



حَوْلَ مَائِدَةِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ: أَسْئَلَةٌ لِلتَّأْمُلِ

- 1- هل تعرف رجالاً كباراً في السن لا زالوا يحملون قلباً نابضاً بالحياة والشباب؟ وبرأيك كيف استطاعوا ان يحتفظوا بروح الشباب لديهم؟
- 2- باعتقادك كيف استطاع موشيه/موسى ان يحافظ على شغفه حتى أيامه الاخيرة في الحياة؟
- 3- كيف تؤثّر علينا جهود نبي الله ورسوله موشيه/موسى في تمرير تجربته للأجيال القادمة وبدوره في الحفاظ على معنى للحياة في هذه الايام؟

• These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at <https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/devarim/to-120-growing-old-staying-young/>

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*

